للحقيقة والتاريخ

رسائل الزهاوى

ترجع صلتى بالشاعر الفيلسوف المرحوم جميل صدقى الزهاوى إلى أكثر من خمس عشرة سنة مضت ، وكنت يومئذ ذلك الفتى اليافع الذى أقبل على دراسة الأدب العربى شعره ونثره — والشعر خاصة — بنهم وشغف بالغين كى يتزود منهما زاده المرجوّ ، وخرج من تلك الدراسة حردان يائساً ؛ فالمثل العليا التى يتعشقها ، والآفاق الواسعة التى يتشوق إليها ، والأجواء المعطرة التى يبتغى أن يحلق فى سماواتها ، أضحت أمامه كلها هباء فى هباء . أجل ! فهذا الشعر الجاهلى بالرغم من حيويته المتدفقة وصياغته البليغة ، تعوزه الصبغة الإنسانية ، أو بعبارة أخرى « العالمية المتحررة » المنطلقة من عقالها ، والتى لا تتقيد بهذا الأفق الضيق ولا تستمع إلى تلك الهمسات الخافتة ، ولا تنحاز جانب ذلك الشعاع الضئيل . . .

على أن من أفضل حسنات هذا الشعر تصويره الصادق للبيئة العربية — ببداوتها وبساطتها — وبما يكتنفها من خشونة وبأس ، ويعتورها من قسوة وألم ، وما طبعت عليه من روح المغامرة والفروسية العارمة والشجاعة المنقطة النظير . . .

وهو — بعد القرآن الكريم — فى مواطن كثيرة مرآة صادقة للفحولة التى تتسم بها اللغة ، والعبقرية التى بوأتها الصدارة بين لغات العالمين . . .

واعتقدت يومئذ — وما زلت أعتقد — أن هذا الشعر وحده مع هذه الخصائص ، لا يشبع شهوة الجاشع النهم ولا ينقع غلة الصادى .

ثم واصلت الدرس ، فرأيت أن الإسلام قد رقق من حواشى هذه الصحائف الخشنة ، إذ صافحت نسماته العذاب وجوه الشعراء ، فصفت نفوسهم وسمت أرواحهم ، وتحاوبت أصواتهم المدوية وأهازيجهم الحميلة مع صوت الحضارة

الجديدة ، فأعجبت بما ابتدعوه من رائق المعانى وجمال التصوير ، وارتيادهم هذه المجاهل التى لم يفطن إليها الأقدمون . . .

ثم جاء شعراء العصر العباسى ، فكانوا أكثر افتناناً فى الخلق وتجويداً فى المعانى . وذلك من الطبيعى ، لتأثرهم بثقافة الإغريق من ناحية ، ولما أمدتهم به الحضارة من أفانين الحسن وشتى ألوان الجمال من ناحية أخرى .

وأعجبت بهؤلاء الفحول — حملة الشعل — الذين أضفوا على اللغة العربية حللا قشيبة جميلة ، وكنت أكثر إعجاباً بأبى تمام والبحترى وابن الرومى وأبى نواس .

ولكننى خرجت من دواوينهم غضبان أسفا . ذلك لأننى رأيتها قد اكتظت بشعر المديح والهجاء . أما الشعر الفنى الذى يرتفع بالقارئ إلى منازل المثل العليا ويحمله على أجنحة الحب إلى سماء الحقيقة ومناسك الجمال ، فلم أر له ذلك الأثر الذى أنشده وأبتغيه .

ثم نظرت أمامى فلم أجد غير شوقى وحافظ والمطران والزهاوى والعقاد ، وأن الأول وهو الذائع الصيت لم يأت بجديد رغم تلك الأحقاب الطوال التى سلكها الشعر العربى ؛ إذ أنه لم يك يومئذ قد ابتدع شيئا من مسرحياته الشعرية الخالدة ، بل ظل خالداً فى أحضان الشعر التقليدى — الرثاء والمديح والهجاء — عاكفاً عليه ينسجه احتذاء وتقليداً للشعراء القدامى . وكذلك الشاعر الاجتماعى حافظ إبراهيم كان هو أيضاً ينافس المرحوم شوقى فى زعامة ذلك الشعر التقليدى فصدفت عنهما ، واستوقف نظرى ذلك التجديد الرائع الذى أخذ بزمامه الزهاوى ومطران والعقاد . . . فدواوينهم لم يشبها المديح ولا الهجاء — اللهم إلا فى القليل النادر — ونظراتهم إلى الشعر نظرات فنية بحتة . وإن فى شعرهم ذلك المزيج العجيب من الحيوية الدفاقة والإنسانية الشاملة — رغم ضعف نسيجهم فى بعض الأحايين — التى تتسم بالصدق ويحيطها الجمال من كل مكان .

فأخذت فى دراسة آثارهم ، وخرجت من هذه الدراسة راضياً مطمئنا موقنا بأن هؤلاء الشعراء أحدثوا حدثاً جديداً فى الشعر العربى . وكان لزاما علىّ أن أسجل هذا الإعجاب وذلك التقدير ، فاعتزمت أن أنشئ عن كل منهم كتاباً

خاصا ، فبدأت بالزهاوى واتصلت به عن طريق « الرسائل » ؛ إذ انى لم أجد وسيلة لتحقيق حياته غير ذلك ، ولبعد الشقة ؛ فكانت هذه الرسائل العجيبة أو بعبارة أخرى « التحقيقات العلمية » الفريدة التى جاد بها علىّ ذلك الرجل الكريم عن طيب خاطر — فى بساطة ودماثة خلق — مما جعلنى أنشر الفصول الضافية عن حياته وكفاحه وجهاده فى سبيل لغة الضاد المخالدة وفى سبيل وطنه العزيز — قبل رحيله إلى الدار الآخرة — بالسياسة الأسبوعية والمقتطف الأغر .

وهأنذا أبدأ بنشر رسائله — وقد مضى على وفاته نحو عشر السنوات — توطئة لنشر كتابى عنه حسبما أوصانى . وهى مما استنفدت من مجهود تؤلف قسما هاما من هذا الكتاب . وإنها اليوم وهى أمانة فى عنق أضحت بوفاة صاحبها ملكا للعالم العربى وقلادة جميلة فى عنق الحقيقة والتاريخ .

احمد محمد عيسى

*

صديقى الأستاذ

سلاما واحتراما ، وبعد فقد قرأت فى السياسة الأسبوعية أول شطر من ترجمتك لحياتى قبل إهدائك إياها إلىّ فأنا أشكر لك جميل صنعك وتجشمك كل هذا التعب . وقد رددت على أسئلتك أمّا « الكائنات » فما عندى منها غير نسخة وهذه لا أفارقها وعسى أن تحصلوا على نسخة منها فى مطبعة المقتطف فإنها طبعت فيها لما جعلها أصحابه قبل سنوات هدية لمشتركيهم وكذلك لا يهون علىّ إرسال «الأوشال» و «النزغات» فإنهما مخطوطتان وليس عندى غيرهما .

أما قصائد الأوشال فأكثرها منشور فى السياسة الأسبوعية والرابطة الشرقية والعصور والدهور والمعرفة والإصلاح (تصدر فى أميركا الجنوبية) وكذلك ما عندى من المحاضرات التى كنت ألقيها على تلامذة الجامعة فى الآستانة غير نسخة واحدة باللغه التركية ولا يسعنى مفارقتها .

وأما « ثورة فى الجحيم » فعندى نسخة منها مطبوعة فى مجلة الدهور وعندى المسودة فأرسلت إليك النسخة المطبوعة وقد تكون فيها أغلاط

مطبعية لا تخفى على مثلك ، وأرسلت « الجاذبية وتعليلها » وأرجو أن تعول فى هذا التعليل على « المجل » والديوان الذى طبع فى مصر باسم « ديوان الزهاوى »

أما ما كتب عنى المستشرقون فمعظمها نشر فى « لغة العرب » للاستاذ الأب « أنستاس » وأما ما كتبته المجلات فى مصر وسورية وأميركا فكثير ، غير أنى لم أحفظ جميعه والمحفوظ منه ضائع فى ركام من المجلات والجرائد وصناديق مملوءة من الأوراق وقد رسب عليها الغبار فلا أستطيع أن أتصفحها فلا تكلفنى مالا أستطيع .

ولك أن تتصرف فى رواية « ليلى وسمير » من دون أن تطلعنى عليه .

وقد بلغنى أن مستشرقا كبيراً فى چنيف يشتغل بترجمة حياتى ، وقد عزم على أن ينقل أحد مؤلفاتى إلى اللغة الألمانية (لعله ثورة فى الجحيم) وقد طلبها منى بواسطة أحدهم فأرسلتها إليه مع قسم من مؤلفاتى ودواوينى ، وقد نقل أحد مستشرقى الألمان أبياتاً إلى الألمانيـة شعراً وتكلم عنى مطريا فى مجلة ألمانية له وأهدى إلىّ العدد .

وقرأت قبل سنوات مقالا رئيسيا فى أكثر من صفحة من جريدة « الرائد » الأميركية يكبر شأن ديوانى « اللباب » ويرجحه على دواوين غيرى ويقترح على الحكومات العربية أن تدخل تدريسه فى مناهج التعليم لمدارسها وتعدد فوائد ذلك .

وقرأت فى إحدى أعداد السياسة الأسبوعية قبل سنتين تقريبا مقالا للكاتب الكبير محمود عزت موسى يقول فيها « أنا لا أفضل شعر جوته شاعر ألمانيا على شعر الزهاوى » وقرأت كذلك فى السياسة الأسبوعية سلسلة مقالات لأحد أدباء الأسكندرية يطرى فيها شعرى فوق ما أستحقه .

وقرأت قبل سنتين أو أكثر مقالا للكاتب النابغة الدكتور طه حسين فى « المجلة الجديدة » للاستاذ سلامه موسى يقول فيه ما ملخصه « إن شوقى وحافظا من شعراء بنى العباس وإن المجددين للشعر العربى ثلاثة العقاد والزهاوى وخليل مطران حين كان يعنى بالشعر العقاد وخليل فى معانيهما دون لفظهما والزهاوى فى ألفاظه ومعانيه ويلذنى معانى العقاد كما يلذنى شعر كبار الشعراء فى فرنسا وانكلترا وكما يلذنى شعر الزهاوى وأرى الفرق عظيما بين الفاظ

الزهاوى وألفاظ العقاد وبين معانيها » فقد رجحنى يومئذ على جميع شعراء العرب فى عصرى وجعلنى المجدد الوحيد الذى حسنت ألفاظه ومعانيه ثم إنه بعد وفاة شوقى نشر مقالا فى الصحف قال فيه إن زعامة الشعر التقليدى بعد شوقى وحافظ انتقلت إلى بغداد يتنازعها الزهاوى والرصافى .

وقرأت قبل ذلك مقالا للاستاذ العقاد يطردنى فيه من حظيرة الشعراء والفلاسفة .

وتأتينى فى كثير من الأحايين من مصر والسودان وتونس وسورية كتب يبالغ أصحابها فى إطراء شعرى فقد جعل بعضهم ديوانى « اللباب » توراة المحدثين وإنجيلهم وقرآنهم وقد أهدى إلىّ بعض الأدباء فى السودان صولجان الشاعرية مصنوعا من سن الفيل ومنقوشاً عليه اسمى .

وهناك كتب تأتينى وأكثرها من وطنى بغداد مملوءة بالسب والإهانة والتهديد وقد كتب أحدهم فى مجلة له قائلا « أما الزهاوى فلا شئ » .

يقولون لا شئ وهم يرجمونني وهل يستحق الرجمَ مَن هو لاشئ

وكتب أخيرا أحدهم فى مجلة « أبولو » أن ليس فى شعر الزهاوى الموسيقى التى هى فى شعر شوقى .

ولا تظنن أنى أزعج من مثل هذه الكتابات فإن الأذواق مختلفة والأدباء يقدرون الشعر بحسب مستواهم من الأدب .

ولقد أرسلت إليك مجموعة من الأبيات التى ذهبت أمثالا أو كادت لكثرة ما يُستشهد بها التقطتها من ديوانىّ « اللباب » و « الأوشال » وشيئاً قليلا من شعرى الغرامى والعاطفى وكنت أود أن أرسل إليك ما أختاره من شعرى الوصفى والفلسفى والاجتماعى والسياسى ولكن هذا يكلفنى تعبا لا أقوى عليه اليوم ، واسمح لى أن أقبل عينيك النافذة .

جميل صدقى الزهاوى

بغداد فى ١٦ شباط سنة ١٩٣٣

ملاحظة : إن أجوبتى عن أسئلتك كتبتها مراجعاً ذاكرتى الواهنة ولو كنت كما كنت قبلا لأثبت المواضع ولكن التيخوخة والمرض عذران .

✲

حضرة الأستاذ

تحية واحتراما . وبعد فقد ثبطتنى أشغالى الفكرية التى كنت قد باشرتها قبل وصول كتابك إلىّ عن الإجابة على أسئلتك المرهقة وقد كان حتما على أن أنظم خمس قصائد مطولة فى مواضيع مختلفة فنظمتها وكانت العاقبة أنى مرضت أسبوعا فلم أعد أصلح للنظم أو الكتابة وحبذا لو كنت تصرف النظر عن توجيه أسئلة تتعلق بماضى حياتى وقد نسيت أكثر حوادثه وأرجو أن لا تتكرر هذه الأسئلة . فإنى أجد فى الجواب عليها عنتا وأنا ذلك الشيخ الذى يشبه جدارا يكاد ينقضّ . أما وقد أبللت فإنى مجيبك فى إجمال عن أكثر أسئلتك فى كتابى هذا .

لم تبق لى والدة ولا والد حتى أسأل منهما ما يتعلق بطفولتى فقد ماتت والدتى قبل أكثر من ٤٥ سنة ووالدى قبل ٤٠ سنة ، ولا هناك عجوز تعرف شيئاً من تلك الطفولة البريئة المتمردة فى وقت معا .

كانت والدتى تعيش مع أولادها فى بيت منعزل عن بيت والدى فتزعنى والدى من أحضانها دون إخوتى وأخواتى وأخذ على عاتقه أن يربينى تربية خاصة متبعاً هواه وكان هواه الأدب وكان شاعراً فى الفارسية والعربية معاً غير أنه مقل فيهما ، ومن شعره فى العربية قوله :

لا تدعُ فى حاجة بازاً ولا أسدا الله ربك لا تشرك به أحدا

(يريد بالباز عبد القادر الجيلى وبالأسد عليا بن أبى طالب كما يلقبهما به الجمهور فى العراق) .

وأتذكر أنه كان فى طفولتى (ولم تتجاوز سنى يومئذ أربع سنين) يعدنى بدرهم إذا نظمت شطراً واحداً من الشعر موزونا وإن لم يكن له معنى وقد كسبت الجائزة مرارا فكان فى ذلك جذل والدى أما جذلى أنا فكان فى الحلوى التى كنت أشتريه بذلك الدرهم .

وأتذكر أنى فى ليلة من ليالى الشتاء القرة كنت فى غرفة والدى فقال لى إلبس يا ولدى عباءتك فإنى أخاف عليك البرد فقلت له وأنا فى السن التى ذكرتها

« يا أبى إنى لابس للغرفة فمن أين يتسرب البرد إلىّ » فكان جوابى هذا مؤيداً لما كان يظنه فىّ من ذكاء وسببا لفرحه .

ولم تكن للبيئة العلمية التى ولدت فيها فضل لخلق الأدب فىّ وما ساعد مواهبى على الظهور — إن كانت لى مواهب — سوى ما كنت أسمعه من والدى وكنت شديد الاختلاط به أنام فى غرفته الخاصة بجنبه وأنظم الشعر تحت لحافى فأنبهه فى كل ليلة مرارا من رقاده أسأله عن وزنه وصحة تركيبه فكان يصلح لى ما يراه مختلا وكان يحملنى على حفظ أحسن الشعر قائلا إذا أكثرت من استظهار الشعر الجيد فإن شعرك سوف يكون من الجودة بمنزلة ما استظهرته ، ومن نصائحه لى عند ما شببت فاستطعت نظم القصائد قوله إنك إذا فرغت من نظم القصيدة فاصقلها ثم انقدها كأنها لغيرك مجردا نفسك من العاطفة فإذا لم يرقك من أبياتها شىء فاحذفه وإلا أفسد عليك الباقى الجيد وأنا إلى اليوم أعمل بنصيحته وأول ما نظمت الشعر فى الفارسية ثم انتقلت إلى العربية حتى شاع أننى أجيده فى كلتا اللغتين .

وبلغنى وأنا مراهق أن الكثيرين يعتقدون أن هذا الشعر الذى أنسبه إلى نفسى هو لوالدى ينحلنى إياه فذكرت ذلك له جردان متبرما فضحك قائلا يجب أن تفرح بدل التبرم فقد بلغ شعرك درجة أن لا يصدق الناس أنه لك فسرى عنى وكان يقول لى وأنا ابن العشرين إنك اليوم أشعر منى ولا أدرى ماذا سوف تكون فى المستقبل عند ما تبلغ الكهولة وتتوسع فى العلم واللغة . وقد تأثرت فى شبابى بشعر المتنبى وشاعر الترك يومئذ « كمال » بك .

ذهبت إلى الكتاب فى الخامسة من سنى أو الرابعة وبقيت فيه بضع سنوات بليدا لا أتقدم ولا أهتم بغير اللعب أو نظم الأشطر الفارغة من المعانى بعد أن وجدتها وسيلة لنيل الدراهم الموصلة إلى الحلوى ، ولكنى بعد ما انتهيت من جزء « عم » أخذت أخطو خطوات واسعة فتعلمت قراءة جميع أجزاء القرآن الباقية فى شهر واحد ، ولما شببت شرعت أقرأ على بعض العلماء من تلامذة والدى مبادىء الصرف والنحو والمنطق وشيئاً من البلاغة . فلما رأيتهم لا يشبعون جشعى ولا يقنعونى بأجوبتهم على أسئلتى تركتهم ورجعت إلى والدى وقرأت عليه ديوان المتنبى وتفسير البيضاوى وشرح المواقف .

وكان يجتمع إلىّ فى شبابى عدد من الأدباء والشعراء نتذاكر الشعر ونختلف

فى معنى بيت أو بيتين فنذهب إلى والدى جاعلين إياه حكماً فيما اختلفنا فيه فكان دائماً يستصوب ما أذهب إليه حتى قال لى أحدهم إنه أبوك يريد ليرفع من شأنك فقلت انسبوا المعنى الذى ترونه إلىّ والمعنى الذى اراه إلى أنفسكم فإذا استصوبنى كنتم فى دعواكم من الصادقين فلما ذهبنا إليه وبسطنا أمامه ما اختلفنا فيه استصوبهم ووبخنى على خطئى فكان ذلك داعيا لسرورى وفشل المدعين .

وأول مجلة لذتنى مطالعتها هو الأجزاء الأولى من المقتطف ، وأول الكتب فى العلوم العصرية هو مؤلفات فانديك فى الفلك وغيره وكتابان ضخمان فى الفسيولوجيا والتشريح مصوران للدكتور ورتبات ، وكتب أخرى تركية كلها فى العلوم العصرية .

اما الكتب التى لا يمكننى اليوم أن أستغنى عنها فهى كتب اللغة المطولة ولا يلذنى شىء كقراءة الروايات المترجمة إلى العربية أو التركية .

أنا لا أعرف لغة غربية لأعرف أى الشعراء أو الكتاب فى الغرب هو الأكبر غير أنى قرأت بالتركية ترجمة البؤساء لڤكتور هوجو فى مجلدين ضخمين فأعجبتنى وأبكتنى وقد قرأت مئات من الروايات المترجمة إلى العربية والتركية فكان بعضها فى منتهى الجودة ، ولا أتذكر الآن أسماء مؤلفيها غير أناتول فرانس وشكسبير وجوته والكسندر وتولستوى وڤليل غيرهم .

وإذا كنتم فى سؤالكم « كيف تشعرون نحو كتبكم وما أحبها إليك بنوع خاص » تريدون مؤلفاتى فأحب منها « الكائنات » فإنها باكورتها وإن كانت عبارتها ضعيفة وأحب « المجمل مما أرى » لأنه يشتمل على خلاصة ما أذهب إليه وأحب من دواوينى « الأوشال » وهو ديوانى الأخير الذى لم ينشر منه إلا قصائد هنا وهناك وأحب خاصة قصيدتى « ثورة فى الجحيم » .

والأفضل فى هذه الحياة هو العلم والشعر ثم القصة .

أما مكتبتى فهى هزيلة ليس فيها إلا الكتب التى تهدى إلى من الخارج وأخر قد اشتريتها بعد رجوعى من مصر سنة ١٩٢٤ وكنت قبل ذهابى إليها قد بعت جميع كتبى إلا النادر منها لضيق ذات يدى يومئذ .

وأما وضعى فى مطالعتى فإنى أجلس فى الليل فوق سريرى أمام أكوام من الكتب التى أحتاج إليها مصفوفة فوق منضدة طويلة فى جنب سريرى الذى أقام عليه وقد أطلّ علىّ لكهرباء بقوة مائة شمعة معلقا فوق رأسى ببكرة أنزله

أصعده بها واقرأ فى الغالب مستلقيا على ظهرى على أن هذا الوضع يتعب عينى.

وكل سيئاتى محبوب إلىّ فيها المطالعة إذا عثرت على رواية مترجمة جديدة أو مجلة فيها مقالة فلسفية

وأكتب شعرى أولا بقلم الرصاص ثم أصقله ثم أثبته فى مجموعة ديوانى الأخير ويحلو لى قرضه فى الليل ولكننى أنظمه فى كل مكان وإن كنت فى مجلس نتحادث فيه، وإذا شرعت أنظم قصيدة عن دافع فى نفسى فإنى أكملها فى ليلتى ثم أصقلها فى يوم أو يومين، وأحسن قصائدى « ثورة فى الجحيم » كما قدمت، وهناك قصائد أخر بعضها منشور فى ديوانى « اللباب » وبعضها موجود فى ديوانى الأخير « الأوشال » كقصيدة « على قبر ابنتها » وقصيدة « نامى » (هى ترنيمة للتنويم) وقصيدة فى « ليلة هنا » وقصيدة « إلاّ أنا وحدى » وقصيدة « اذكرى » وقصيدة « دمعتى » وقصيدة « إلاّ هواك » وقسم غير قليل من رباعياتى عدا قصائدى الفلسفية.

وأنصح للشعراء أن ينظموا عن شعور وأن يتجنبوا المبالغات وربما كان ذلك لأنى أميل إلى الحقيقة والخيال الذى لا يبعد عنها كثيراً وأن يتجنبو الاستعارات البعيدة

وأرى أن الغالب من شعراء مصر والعراق مبالغون وهذا الطرز من الشعر لا يكون عن شعور.

والفرق بين شوقى وحافظ كبير فإن شوقى أكثر ابتكارا وأبعد تصرفا وهو يجيد فى أكثر أبواب الشعر فى حين أن حافظا أكثر ما يجيد فيما يتعلق بالعاطفة وأرى أن شعر شوقى فى السنين الأخيرة أخذ يتجدد ولذلك تغير رأيى فيه فلا أنتقده إلا على مبالغاته التى لا صلة لها بالشعور ويعجبنى منه أسلوبه الخاص به ولكل شاعر مخل أسلوب.

وأما الفراغ الذى تركه حافظ وشوقى فسوف تسدّه الأيام.

وكنت أجد فى حكم الأتراك غضاضة إلى عهد الدستور وكنت من معارضى استبداد الملك الجبار عبدالحميد، ونظمت القصائد الجمّة أثير بها الشعب عليه وقد سُجنت عليها فى الآستانة ثم أُرسلتُ مخفورا إلى بلدى ولكن الأتراك فى عهد الدستور كانوا يحترموننى إلى أن طغى الاتحاديون فأتوا أعمالا لا تتفق والعدالة وكم لى من وقفة فى البرلمان العثمانى أذود فيها عن حقوق العراق والعراقيين.

ولم أكن يوم عينتنى حكومة عبد الحميد عضواً فى مجلس المعارف ببغداد إلا شابا يتظاهر بالاستياء من وضع الحكومة فلعلهم أرادوا بتعيينى ن يسكتونى ولما ذهبت إلى الآستانة واختلطت بالترك الفتيان أبعدت فى التجاهر ونشر القصائد بأسماء مستعارة فى أمهات الصحف المصرية ، وقد ذهبنا فى حرب الإنجليز والبوير جماعة من الترك الأحرار نتمنى للإنكليز الفوز فى محاربتهم وذلك بقرار من الحزب المناوىء لعبد الحميد يريدون بذلك أن يعضدهم الانكليز فى طلبهم الدستور وكنت نظمت لهذه الغاية قصيدة أمدح فيها الإنكليز وأشدو بقوة أسطولهم وقد نشرت فى أول ديوان نشر لى « الكلم المنظوم » وإلى اليوم يعيبنى ناقدوى على هذه القصيدة ولكن هل كنت يومئذ أعرف أن ستحدث حرب عالمية ويحتل الانكليز العراق هذا لم يكن يخطر فى بال أحد ولم تكن فى بغداد يومئذ كتلة وطنية .

ولم أدرس القانون إلا بعد أن عينتنى الحكومة التركية عضواً لمحكمة الاستئناف ثم فى عهد الدستور أستاذاً للقانون المدنى فى كلية الحقوق ببغداد بعد أن كنت أستاذاً للفلسفة فى الجامعة بالآستانة فجمعت عند تعيينها إياى مدرساً فى كلية الحقوق ما أحتاج إليه من الكتب التى تتعلق بدرسى وتوسعت فيه إلى حد وكلية الحقوق هذه كانت يومئذ أعلى مدرسة فى بغداد يدرس فيها كل مايتعلق بالحقوق .

ولم تكن لى حرفة أشتغل بها فى شبابى أما بعده فكانت حرفتى التدريس فى الجامعة والكلية وغيرها من المدارس فقد درّست فى عهد الاحتلال معلمى المدارس من المخرجين من دار المعلمين ولم أمل فى حياتى كلها إلا إلى الفلسفة والأدب .

وحبذا لو اعتمد شبان الشرق العربى على أنفسهم فى طريق الحياة ولم يتهافتوا على وظائف الحكومة . أما القوانين التى ترجمتها إلى العربية عندما كنت رئيساً للجنة « تعريب القوانين » فعددها ١٧ قانونا غير أنى لا أتذكر منها إلا قليلا .

وأخال أنى أميل إلى دراسة قانون العقوبات أكثر من القانون المدنى فإن فيه المجال للفكر أوسع وهو أحوج إلى الإصلاح من القانون المدنى فلا أعتقد أنه يصلح للمستقبل الذى ستتغير فيه العادات ويتطور المجتمع تطورا لم يكن فى الحسبان .

وإنى أقضى يومى فى إعادة الزيارة للذين يزورونى من أصحابى الذين هم أقرانى

وكثيراً ما أجلس فى المقهى الذى يجتمع فيه الشبان الذين ينزعون إلى الأدب فيحيطون بى وقد أصحح لبعضهم قصيدة له يعرضها علىّ وأرجع ظهراً إلى دارى التى بنيتها جديدة وهى محاطة بحدائق وأجلس مساء فى حديقتى فيزورنى من يزورنى وفيهم المتعلم والشاعر والمنادم والسائل يريد حلا لمشكلة علمية عنده .

والجانب الخاص بحياتى المنزلية هو أنى إذا لم أكن فى يومى قد ثارت فى آلامى العصبية أطالع ثم أطالع وأتنقل من كتاب إلى كتاب كأنى عصفور يتنزى من غصن إلى غصن فى روضة وأكثر ليالىّ أقضيها فى مطالعة وجه السماء الحافل بالنجوم والتفكير فيها إذا كان الفصل صيفاً وأما فى الشتاء فأحب أنواع التسلية عندى هو مطالعة الروايات المترجمة إلى العربية أو التركية .

وأما الأبحاث العلمية التى أكتبها فليست كما تظن جافة فى نظرى وقد أعتمد على المراجع أثناء كتابتى غير أن أكبر مرجع لى هو ذاكرتى فإنى وإن كانت ذاكرتى فى المسائل الاعتيادية ضعيفة لا أنسى أكثر ماقرأته أو طالعته فى شبابى وكهولتى فى المطالب الفلسفية واليوم ذاكرتى أضعف منها فى شبابى وكهولتى غير أن قوة التفكير فىّ لم تضعف ضعفاً محسوساً .

وأحب الروايات التمثيلية إلىّ هو التراجيديا .

وحضرت مامثلته السيدة فاطمة رشدى والأستاذ يوسف وهبى فى بغداد من الروايات فأبكانى بعضها وأحب السينما كثيراً لأنى أشاهد فيها مناظر الغرب وأعرف من رواياتها عادات القوم فهى تقوم منى مقام السفر

والناس فى بغداد مفرط ومفرّط فمنهم من يقدمنى على كل شعراء العرب ومنهم من يجعلنى دون جميعهم أما أنا فلا أفرح بمدح المادحين ولا أحزن لذم القادحين غير أنى أكره المنافقين الذين يمدحوننى فى وجهى ويذموننى ورائى وأبغضهم إلىّ من ينقدنى حباً بالشهرة وأكثر ماقرأته من النقد لى لم يكن نزيهاً ولا قائماً على أساس من العلم والمنطق بل على الأكاذيب والمفتريات والناس المتأدبون فى العراق فوضى فقد تقرأ جريدة تصعدنى إلى مافوق منزلتى وتقرأ فى اليوم الثانى جريدة أخرى تنزل بى إلى الدرك الأسفل ويختار أحدهم بيتاً من دواوينى جاء تمهيداً لبيت وراءه ويجعله من بين ٢٠٠٠٠ بيتاً حجة على أنى لا أحسن النظم ويأتى آخر فينسب كل ما هو من عملى أنا إلى غيرى يريد بذلك إغاظتى كقوله إن فلانا (يريد غيرى) هو أول من قاوم الاستبداد بشعره وأول

من نظم الشعر القصصى وأول من دفع عن المرأة كذبا وبهتانا وهو يدرى أنى الذى قاومت إستبداد عبد الحميد قبل أربعين سنة ونظمت الشعر القصصى قبل ٣٥ سنة ودافعت عن حقوق المرأة قبل ثلاثين سنة وقد سُجنت فى الآستانة من أجل القصائد التى نظمتها طعناً فى حكومة السلطان الجبار عبد الحميد لاستبدادها وعزلت من وظيفتى فى كلية الحقوق بسبب دفاعى عن حقوق المرأة وأنى أنا الذى نظمت قصة « امرأة الجندى » قبل أكثر من ثلاثين سنة يوم لم يكن فى بغداد شاعر يصرف الشعر فى إصلاح المجتمع .

كل هذا وأنا ساكت لا أتنزل إلى الرد على أمثالهم فأمر باللغو كما يمرّ الكرام وأقول إذا خاطبنى الجاهل سلاما .

وأكثر الذين يعادوننى فى بغداد هم من الشعراء أو أصحابهم يسأل رأيى فيهم شاب متعلم فانزلهم منزلتهم فيسمعون ذلك ويناصبوننى عليه .

وما زالت نهضة العراق ضيقة النطاق .

وأما أبطال النهضة المصرية فشوقى وحافظ واسماعيل صبرى والأستاذ الأكبر لطفى السيد والفيلسوفان شبلى شميل ويعقوب صروف والدكتور طه حسين والدكتور هيكل والدكتور عنانى والدكتور منصور فهمى والمرحوم ولىّ الدين يكن وفى مقدمتهم الامام عبده والفيلسوف جمال الدين الأفغانى وغيرهم .

وقد أحببت فى أول شبابى جارية شركسية عرضت للبيع واستحييت أن أخبر والدى بحبى لها وكانت هى لاتعرف أنى أحبها وأحببت فى الآستانة يهودية أسبانية عذراء وكانت تحبنى مثل حبى لها وتزورنى فى دارى مع أبيها فلما سجنت بكت علىّ وربما كان لهذا الحب تأثير كبير فى شعرى .

وقد تزوجت قبل ٤٥ سنة بعد وفاة والدى بقرينتى النجيبة السيدة زكية وهى من عائلة تركية وقد قضينا العمر فى حب ووئام ولم تلد لى وربما كنت أنا السبب . وكانت العادة أن تختار الأم أو الأخت الزوجة للإبن أو الأخ وهذه الطريقة كثيراً ما تفشل إلا أنها لم تفشل معى والمثل الأعلى للزواج أن يختار كل من الزوجين صاحبه بعد صداقة بريئة ومعاشرة غير قصيرة بمشهد من الأقارب أو الأصدقاء وأن يكون العقد مشروطاً بجعل الطلاق من حق كلا القرينين إذا حصلت عند أحدهما كراهية نحو الآخر وكانت راسخة .

ولاتزول أزمة الزواج فى مصر والعراق إلا إذا كانت الثقافة مشتركة بين

الفتيان والفتيات فنظرا إلى الزواج نظرة صادقة وجعلا الحقوق متساوية بينهما . أما فى العراق فالزوجة لاشأن لها فى أمر الطلاق وأما الزوج فكثيراً مايطلقها لأنه جلب بالطلاق أنه صادق وكذب أو لأنه يخاصم أحدهم على مسئلة تافهة فيرجع إلى بيته ليلا حردان أو سكران فيطلق زوجته لأنها كانت راقدة فلم تسرع فى فتح الباب أو لأنها أبت أن تسلمه حليها لبيعه ليشترى بثمنه الخمرة أو يصرفه على مائدة الخمار .

كراهةٌ فسبابٌ فركلةٌ فطلاق

كانت حنجرتى فى شبابى متينة غير أن الزكام وتكرر الاصابة به والسعال المزمن كل أولئك قد نهكها ولاسيما فى شيخوختى الشلاّء العرجاء .

ولا أرتجل من الشعر إلا البيت والبيتين ولا ميل فى نفسى إلى الارتجال وربما كان ذلك لضعف حافظتى

وقد كنت فى شبابى وكهولتى أسير فى المنام وكانت بعض أحلامى مزعجة انتفض لها وأهب من نومى مذعوراً وكسرت فى ليلة كل مافى غرفتى من المرايا والأوانى الصينية والمصابيح الثمينة وأنا نائم فدميت يداى لجروح أحدثتها كسر الزجاج وكانت قرينتى ترتجف من الخوف فى سريرها وقد انتبهت من نومها على صوت الزجاج والأوانى التى كانت تتكسر .

وقد رميت نفسى مرّة من شباك فى الطابق الثانى إلى الطابق الأول ولم يصبنى إلا رضوض وكثيراً ما أنظم فى حلمى شعرا وأنساه فى يقظتى وقد أحل فى نومى مشكلا لم أحله فى يقظتى وفوق هذا فإن العقل الباطن هو الذى يعيننى على نظم الشعر فى يقظتى فكأنه قرينى من الجن يملى علىّ فأكتب .

وآلامى المعنوية أكبر من آلامى المادية فإنى كلما رأيت تقدم الشعب بطيئا استولى على اليأس وكلما انخدع بالباطل تمزق قلبى من الأسى وكلما خضع للظلم شرقت بدمعى . يمشى فى سبيل التقدم الهوينا ثم يقف به تعصب المتعصبين فى مكانه لا يتقدم ولا يتأخر ثم يمشى ثم يقف .

ليس الذى جاء يمشى اليوم متئدا بلاحق للألى من قبله ركضوا

ولا أقرأ من الصحف إلا ما أراه ذا بال سواء كانت عراقية أو مصرية وأقرأ

خاصة فى المقتطف ما جدّ فى العلم أو ما ارتآه كبار علماء الغرب فى الفلك وبناء الكون أو فى الأشعة أو فى الغدد السائبة إلى غير ذلك .

وكنت فى طفولتى ألعب بالكعاب ثم بالحمام القلاب فأطيره أسرابا وقد نشر لى المقتطف مقالة فى بيان سبب تقبله ورجح تعليلى له على تعليل العلامة دارون وولعت بركوب الخيل فكنت أسابق بكرامها غيرى من غواتها ونشر لى الهلال رسالة فى سباق الخيل ذكرت فيها كثيراً من الحقائق المتعلقة بالعدو .

ثم ولعت بلعبة « الداما » فألفت فيها رسالة سميتها « اشراك الداما » جمعت فيها ٥٠٠ لعبة لأساتذة الداما وأضفت إليها من مستنبطاتى ألف لعبة وكان لى فى شبابى أصحاب من ضباط الجيش الممتازين (أركان حرب) وكان هؤلاء يلقون علىّ مسائل لا تحل إلا بالجبر الأعلى فكنت أحلها بقلمى مستخدما عقلى وحده لأنى لم أتعلم قواعد الجبر فكانوا يتعجبون من ذلك ولا أخالنى اليوم قادراً على ذلك .

كنت فى شبابى زعيما على أترابى وكانوا يحترموننى ويتجنبون مخالفتى وكنت قويا فى منطق وعضلاتى وأعصابى وسباقا فى العدو وكنا نتسابق فى الغوص فى الماء فلم يغلبنى أحد منهم فقد كنت أستطيع البقاء فيه مدة ثلاث دقائق وكانوا لا يزيدون على الدقيقة وكنت أركض إلى جدار قائم أمامى فأخطو فوقه ثلاث خطوات من غير أن تمسه يدى وغيرى لم يزد على خطوتين .

ولا أزال أستقبل زوّارى مرحباً بهم وإن كان بعضهم من المنافقين الكذابين الذين لا تلذنى محتهم وكثيراً ما فارقنى هذا القسم من الزوار فكتب فى الصحف مفتريا علىّ ما لم قله .

الكذب عاهرة شهدت طلاءها وسمعت منهـــا رنة الخلخال

وكنت فى كل حياتى عزيز النفس فقد عيننى جلالة الملك فيصل المعظم قبل سنوات شاعراً لنفسه براتب شهرى قدره ٦٠٠ ربية فرفضت على شدة عوزى يومئـذ وكتبت فى عريضة رفضى « أنا لست ذلك البلبل الذى يغرد طمعاً فى حبات تلقى إليه » ثم بعد أشهر بلغت زيادة راتبى بجعلها ٨٠٠ ربية إذا قبلت فرفضت ثانية على أن رفضى هذا لم يكن عن استكبار بل عن اعتقادى أن الشعر الذى يقوله الأجير لا يصدر عن شعور . وأعتقد أن جلالتـه لم يرد من هذا

التعيين إلا أن يكون وسيلة لرفاهتى فهو غنى عن مدحى ومدح غيرى ومن واجباتى أن أمدح ملكى المعظم كلما جاء عملا فيه نفع بلادى

رب مال هو لو شئت اقتناء عنـــد لمسى
إنما تمنعـــنى عن نيله عـــزة نفسى

أما صحتى فليست جيدة وذلك لمرض عصال اعترانى فى سن ٢٥ مركزه فى النخاع الشوكى منى وقد تداويت فى بغداد والآستانة ومصر عند أشهر الأطباء فلم يجدنى دواؤهم وكل استفادتى أن توقف الداء فىّ ولكن بعد أن شلت أصابع رجلى اليسرى .

وقد أحاول أن أسعى فتمنعنى رجل رمتهـــا يد الأيام بالشلل

وأحب من الأطعمة أيدى الضأن مع قليل من الخل ، ولكن الخل يزيد فى آلامى العصبية ويثيرها وأحب البيض الطازج والرز إذا كان من النوع المسمى بالعنبر والحلوى إذا كانت قليلة الحلاوة والتمر الطرى مع اللبن الرائب وشوى السمك إذا كان من نوع «الشبوط» والبفتك ولكن الأطباء يمنعوننى من أكل اللحم إلا الأبيض منه .

وأحب المجلات إلىّ فى الشرق العربى هو المقتطف الأغر ثم السياسة الأسبوعية والعصور والدهور لما كانتا تصدران .

وإذا جلست معى ساعة كصحفى فإنك تخرج لقرائك من عندى بما يسخط الجمهور ويرضى الخواص وإذا كانت المباحثة فى أمر جلل فإن حديثى يهب أولا كالنسيم العليل ثم يزداد شدة فيكون ريحا ثم يشتد فيكون إعصارا فتتوسع عيونى ويرتفع صوتى وتمتد إليك يدى كأنى أريد أن أدمغك بجمعى وأخال أن السبب هو شدة العصبية فى وأتذكر قول أحد الأطباء الإخصائيين الأمراض العصبية فى الآستانة « أنى بحسب اختصاصى شاهدت كثيراً من العصبيين ولكن ما رأيت كعصبيتك فى شدتها » وأنا لا أسمع القرآن إلا فى أوقات نادرة كحفلة عقد النكاح لأحد معارفى . وعندى أن أفضل لباس للرأس هو البرنيطة ، ولا يجدى الشرق إلا الحندية الإجبارية والتعليم الإلزامى معا ، وإذا جلست معى بدون سابق معرفة فإنى أستدرجك فى الكلام بادئا بأبسط الأسئلة وأنتقل

فيها حتى أعرفك قبل أن تعرفنى ، وبى من الميل إلى الموسيقى ما هو شديد إذا كان الموسيقار فنانا فقد تبكينى ويطيب لى البكاء حينئذ كأنها تنكأ جرحا فى قلبى يحتاج أن ينصب إلى الخارج قيح محصور فيه وكنت فى شبابى أذهب فى صباح الأعياد إلى المقابر فأسمع أمهات الموتى أو أخواتهم أو خطيباتهم يخاطبنهم بكلمات يودعنها شجوهن هى الشعر فتغرورق عيونى وأجهش فى مكانى .

وإذا جلس إلىّ أحد كتلميذ يود الاستفادة فإنى أنصحه قبل كل شىء بالصدق باسطا له مضار الكذب وأنصحه بالتعلم ولا سيما العلوم التى تحتاج إلى تفكير وأنصحه أن لا يتعصب فى الدين ويترك كل أحد حرّا فى آرائه .

والمصدر المادى الذى أعتمد عليه هو ١٥٠٠ باون لى فى البنك وبيتان لى أريد بيعهما يساويان ١٥٠٠ باون عدا الدار الجديدة التى بنيتها صارفا على شراء العرصة وبنائها وتأثيثها ١٧٠٠ باونا أما راتبى فى التقاعد فهو ١٢ دينارا فهو ضئيل لا يقوم بنصف نفقاتى . وهذا الذى ادخرته هو من فضلة رواتبى الضخمة قبل أن أتقاعد :

لى زوجة وليس لى أولاد وعندى ثلاثة من الخدم إحداهم طباخة .

وما تصورت فى عمرى أن أنتفع بالأدب ولا أرسلت قصائدى إلى مجلة إلا بعد أن طلب صاحبها ذلك وعرفت أن مجلته رائجة وفى السنين الأخيرة لم أنشر قصائد لى فى جرائد بغداد لعلمى أنها تمقتنى وتحسبنى مارقا إلا جريدة هى فى جانبى ولكنها مسدودة اليوم من قبل الحكومة .

أما مواقفى العظيمة التى وقفتها فى حياتى فهى كثيرة منها . أنى لمّا كنت أستاذا للفلسفة فى الجامعة التركية قدم أحدهم تقريراً إلى البرلمان أن الزهاوى يضلل التلاميذ فسألنى وزير المعارف فأجبته قائلا إنى أذكر فى دروسى حجج علماء الغرب بكل قوة وأذكر دلائل علماء الدين كذلك وأترك البت إلى قابلية التلاميذ وأنا لم أطلب هذه الوظيفة منكم فأنتم الذين عينتمونى وإذا كانت طريقتى لا تروقكم فإنى مستعد للاستقالة فرضى البرلمان بجوابى وبقيت مواظبا على دروسى التى كنت ألقيها على تلاميذى وكان عددهم ٣٥٠ تلميذاً .

ومنها أنى أنشدت أبا الهدى قصيدة فى ذم سياسة الملك عبد الحميد وسجنت على ذلك وسُفّرتُ إلى بغداد مخفورا ، ومنها أنى لما كنت عضواً فى البرلمان

العثمانى رأيت فى ميزانيته الحربية مخصصات لقراءة البخارىّ الشريف فقلت لو كنت أرى هذه المخصصات فى ميزانية الأوقاف أو المشيخة الإسلامية لما أوجبت استغرابى ولكن وجودها فى ميزانية البحرية عجيب فهل ترون أن أسطولنا يتحرك بالبخارى الشريف لا بالبخار فقامت ضجة حول كلمتى هذه وأخذ النواب يضربون على المناضد حتى كادت تنكسرا ، وأشد الغيظ علىّ كان من أهل العمائم وقد جاءتنى فى اليوم الثانى كتب من شباب الترك يهنئوننى على جراءتى .

ومنها أن الحكومة المحتلة فى زمن المندوب السامى السر ولسن — كانت يومئذ الثورة العراقية فى أبان شدتها — جمعت مندوبى الأمة للمذاكرة واختارت من الأشراف الذين لم يتظاهروا بالاتفاق مع الثائرين عشرين شخصا وكنت أحدهم . فلما فرغ المندوبون من بسط مطالبهم انتظر المندوب السامى كلمة الذين اختارهم وكان يعتقد أنهم سيكونون فى جانبه فقمت خطيبا وقلت أنا بالأصالة عن نفسى والوكالة عمن انتخبوا معى أشترك مع مندوبى الأمة فى مطالبهم هذه الحقة ولا أرضى بغير الاستقلال للعراق فلم يكذبنى أحد من المختارين واستاء المندوب السامى وجماعته منى وأخذت الحكومة المحتلة تغير وجهة سيرها فى الانتداب إلى غير ذلك من المواقف التى يطول شرحها .

وما أعددت من الوسائل ليشرب الشباب ماء رسالتى كما تسأل غير نشر افكارى فى المجلات وفى مؤلفاتى ويعتقد الكثيرون أن نعرة التعصب فى العراق لم تخفت إلا بما نشرته من الأفكار الفلسفية والاجتماعية الحرة .

ولا أرد على خصومى إذ لا أجدهم أهلا للرد ولكن بعض تلاميذى يثورون الآونة بعد الأخرى فيردون عليهم بما يرجعهم مدحورين .

وأما سؤالك عن صلاتى وصيامى فإنى أرانى مقصراً فيهما وأما ما ينسبونه إلىّ من الإلحاد فلا دليل لهم عليه سوى تخرصاتهم .

وقد درست الشريعة الإسلامية والعلوم العصرية وتقدر أن تفهم أثرها فىّ من مؤلفاتى ومقالاتى :

لما جهلتَ من الطبيعة أمرها ... وأقمتَ نفسك فى مقام مُعَلِّلِ
أوجدتَ ربّا تبتغى حلاً به ... للمشكلات فكان أكبر مشكل

والمسلمون لا ينهضون إلا إذا فرّقوا بين أمور الدنيا والدين ، وقد خرجت من دراستى للشريعة الإسلامية بما يغيظ المتعصبين من إخوانى المسلمين .

ولا نهضة للمسلمين إلا بتعديل أحكام الشريعة وما أحسن القاعدة التى وضعها علماء الكلام من أهل السنة وهى « إذا تعارض العقل والنقل أُوّلَ النقلُ بالعقل » .

وصوفيتى التى أتغنى بها هى أن الله فى الطبيعة والطبيعة فى الله ونقطة الضعف التى أشعر بها هى عدم معرفتى لإحدى لغات الغرب .

والجانب البارز العام فى حياتى هو التمرد على كل قديم ضار .

سئمت كلَ قديم عرفتهُ فى حياتى
إن كان عندك شىء من الجديد فهات

جميل صدقى الزهاوى

بغداد فى ٢٠ تشرين الثانى لسنة ١٩٣٢